

الفصل السادس

التربية الخلقية

الدين أصل من أصول الأخلاق :

الدين والأخلاق حقيقتان لاتنفصلان في الديانة الإسلامية ، كما تتلازمان في جميع الأديان . وهناك أديان سادت في شعوب مختلفة وتبعها الناس زماناً بعد زمان وجيلاً بعد جيل . وليس فيها من أصول الدين إلا نزر يسير لايلى إليه بال ، إلى جانب ما فيها من حكمة خلقية وفضائل نفسية . مثال ذلك ديانة الصين وهي الكونفوشيوسية ، وهي مجموعة فضائل بثها حكيم الصين لحمد الإنسانية ، ولم تنزل إليه وحياً من الله ، فالأمة التي ينتشر فيها الفساد يذهب ربحها ونمحي من صفحة التاريخ وهي ودينها إن كانت تدين بدين .

ولم يكن القابسي في حاجة إلى النص على أنه يريد من التعليم تهذيب الخلق . لأن تعليم الدين يحمل في طياته هذا التهذيب .

فالإسلام يفصل الكلام في المسائل الأخلاقية الرئيسية التي تناولها القدامى والمحدثون : فيه بيان عن الأصل الأخلاقي للسلوك الإنساني ، وفيه بيان عن البواعث الخلقية ، كما ينظر في الحكم الأخلاق ، وفي الغاية من الفعل الخلق . وجماع هذه المبادئ الأربعة نجدتها في القرآن ، فهي مبسطة وافية ، ولكنها متناثرة في شتى آياته على الطريقة القرآنية ، وهي ظاهرة لكل من ألم بالكتاب ، ونظر فيه نظر أولى الأبواب .

« ما فرطنا في الكتاب من شيء » .

لهذا جعل المسلمون القرآن حجته ومرجعهم . ولهذا السبب ألزموا تعليمه ومعرفته . والفقهاء يعتبرون القرآن الأصل الأول من أصول الدين ، ويعتبرون السنة

مكلمة للكتاب . قال القاسبي : « ومشتهر عند المسلمين أنه جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتي » فهو شيء لا بد من تعلمه » ٣١ - ب .

والأخلاق من العلوم المعيارية التي تبسط للناس مثلاً علياً ينبغي اتباعها ، وتختلف عما يكون عليه الإنسان في الواقع .

ويرجع الأصل في الاختلاف بين الواقع والواجب إلى ظهور الدين والعرف ، وكلاهما سلطتان قاهرتان خارجتان عن الفرد ، ويخضع لهما الفرد .

وظل الإنسان زمناً طويلاً لا يميز بين السلطين ، سلطة نفسه وسلطة الدين والعرف الخارجتين عنه . والطفل لا يميز بينها لقصور عقله ؛ والعامية من الناس كذلك لا يفرقون بين هذه الذاتية وبين السلطة الخارجية ، وذلك لجهلهم ، وبعدهم عن التفكير في أنفسهم .

وأقدم الحضارات التي بينت في وضوح سلطة الدين على الأخلاق هي حضارة قدماء المصريين ، التي آمنت بخلود الروح ، والبعث والحساب والعقاب . وإنك لتجد في أوراق البردي ، والكتابات المسجلة على جدران المعابد كثيراً من قواعد السلوك تعتبر هداية إلى الخير وميزاناً للعمل الصالح . لهذا السبب ارتقى العمران عند قدماء المصريين ، واستمرت حضارتهم أحقاباً طويلة .

ويعتبر المؤلفون الأوروبيون أن سقراط هو أول من تكلم في علم الأخلاق كلاماً له قيمته ، بل يعتبرون سقراط واضع علم الأخلاق . وقد صرح بأن الحياة الخلقية تعتمد على أصليين : قوانين الدولة المكتوبة ، والقوانين الإلهية غير المكتوبة . ولكن سقراط قد أحس في الوقت نفسه بتدهور الحياة الخلقية التي كان يحياها معاصروه فحاول أن يكشف عن المبادئ العامة الخلقية المسلم بصحتها ، وانتهى إلى أن الفضيلة وليدة المعرفة أي أنها أمور يمكن تعليمها وتعلمها^(١) .

أما أفلاطون فيقابل بين العالم المحسوس والعالم العقول ، ولا يجد الخير إلا في

(١) المدخل إلى الفلسفة تأليف كوكبة - ترجمة أبو العلا عفيف - سنة ١٩٤٢ مطبعة لجنة التأليف

العالم العلوى المعقول ، حيث نجد المثل تتدرج نحو الإله الخَيْر الصانع . وقد أعجبت الأفلاطونية المسيحيين لما فيها من روحانية تتفق مع روح المسيحية . وتعتمد المسيحية على مبادئ ثلاث : فكرة الذنب الموروث ، والدعوة إلى محبة الناس كافة والتسامح ، والاعتقاد فى الثواب والعقاب فى الآخرة .

فالأخلاق إلى عهد المسيحية كانت تسلك طريقين : الأول محاولة الرق بالإنسان نحو الكمال ، والثانى التسليم بأن المعصية موروثه ، وأن الخلاص منها بيد الله .

وكلا الطريقين يستند إلى وجود الله ، ويعتبر أنه تعالى الأصل فى الأخلاق . ونظر الفلاسفة المحدثون إلى مشاكل العالم والإنسان بالعقل الحر الطليق من جميع الآراء السابقة ، وقد وجدوا أن وجود الله ضرورة من ضرورات هذا العالم . فديكارت والمدرسة الديكارتية تصل بين الأخلاق وبين ما بعد الطبيعة ، وتجعل الله ، وهو الكمال المطلق ، أصل الأخلاق .

وهويز الفيلسوف الإنجليزى ممن يعتبرون الدين وهو سلطة خارجية مصدر التشريع الخلقى ، وأن الفعل الخلقى يعتبر خيراً لأن الله يريده ، وبذلك يتفق مع الإرادة الإلهية .

فإذا كنا فى العصر الحديث لانزال نفسح المكان للجانب الإلهى الذى يصدر عنه الخلق والخلق بل كل شئ ، على الرغم مما يسود العالم من حرية رأى ، وجرأة فكر ، وفلسفة مادية ملحدة تحاول تفسير كل شئ ، فليس من الغريب أن نجد فقهاء المسلمين ، ومن بينهم القابسى ، يردون كل شئ إلى الله ، ويجعلون الواحد القهار الرحمن الرحيم ، أصل الأخلاق ، ومصدر الأعمال ، وهو القائل فى كتابه : « والله خلقكم وما تعملون » .

كانت البيئة دينية ، التفكير الدينى يسود فيها كل شأن من شئون الحياة .

القرآن أصل الأخلاق الإسلامية :

الأخلاق نظرية وعملية . ولم ينص الإسلام على أخلاق نظرية منفصلة ، يتبعها

السلوك العمل ، ويستمد قوته من تلك النظريات المقررة . وإنما رسم للناس قواعد العمل الصالح الذى ينبغى أن يسيروا عليه . ومرجع المسلمين فى ذلك هو القرآن أولاً ، ثم السنة المكمل للكتاب .

والقرآن زاهر بهذه القواعد العملية التى تتناول أغلب أحوال الناس فى معاشهم . وفى صلاتهم بغيرهم من الناس ، ومعاملتهم بعضهم بعضاً . والإسلام دين السلام ، سلام بين المرء ونفسه ، وبين المرء وغيره . وهو أول دين يحمل الخير للإنسانية كافة . لا يقتصر على شعب دون شعب . أو يؤثر أمة على أمة ، فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

فهو شريعة الله لنفع العباد : «إن الدين عند الله الإسلام» . أما الأديان الأخرى فإنها تنسب لأصحابها من الأنبياء والرسل والحكام فالمسيحية تستمد اسمها من المسيح ، وكذلك اليهودية والبوذية^(٢) .

ويفسر القابسى الإسلام تفسيراً يؤكد به العمل المفروض على الناس من الله ، على طريقة النظر من أهل السنة ، لا على طريقة المتأخرين ، فالإسلام هو : «عمل الجوارح بما افترض عليها ، لأنه يدل على استسلام من قال : أسلمت لله » هـ - ب . وإذا لم يفترن الإسلام بالإيمان فهو النفاق .

فالإسلام هو الإيمان بالله ، يضاف إليه العمل الصالح . ويفسر بعض المعتزلة الآية السابقة تفسيراً أعمق ، وأقرب إلى طريقتهم ومذهبهم ، فالإسلام هو : «العدل والتوحيد . وهو الدين عند الله وما عداه فليس عنده فى شيء من الدين»^(٣) .

ويقرب من هذا التفسير ما يراه «أمير على» إذ يقول : «إن لفظ الإسلام مشتق من السلام ، والتحية ، والأمن ، والإخلاص . ولا يدل هذا اللفظ ، كما هو مشهور ، على الاستسلام المطلق لإرادة الله ، ولكنه على العكس يدل على الجهاد فى سبيل الحق والعدل»^(٤)

Amee Ali, The Spirit of Islam, p. 137. (٢)

Amee Ali, The Spirit of Islam, p. 138. (٤)

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري

هذا التفسير يتلاءم مع مبادئ الأخلاق ، لأنه يجعل الإنسان مسئولاً عن أعماله ، ويؤكد حرية إرادته ، وسنرى كيف يوفق القابسي بين الإرادتين : إرادة الله وإرادة الإنسان فيما بعد .

أما مبادئ الإسلام فهي ثابتة مقررة في القرآن .

وإذا نظرنا إلى القرآن نظر الباحث الذي يريد تحليل ما جاء فيه ، وجدنا أنه ينقسم إلى أربعة أقسام : قسم للعقائد وما يتصل بها ، وقسم للتشريع ، وثالث للأخلاق ، ورابع للقصص .

وقسم التوحيد يدعو الناس إلى الإيمان بالله الواحد القهار وذلك بأدلة كثيرة منها ما هو عقلي يدعو إلى التفكير والنظر ، ومنها ما هو وجداني يشير العواطف المختلفة ، ويبعث الرغبة والرغبة ، فيقع المرء تحت تأثير العاطفة ويسهل عليه الانقياد ويتصل بهذا القسم القول في الوحي والآخرة والجنة والنار ، وأشبه هذه المسائل التي تعتبر جزءاً من العقائد ، وتندرج تحت ما وراء الطبيعة . ويتبع هذا القسم أيضاً العبادات المختلفة ، وأولها الصلاة وهي ذكر الله ، لأن معرفة الله لا تتم بالنظر ، وإنما تستكمل بالعبادة والقرب ودوام الذكر .

وقسم التشريع ييسر القوانين التي ينبغي اتباعها وتطبيقها في المعاملات المختلفة . وبهذا يحمل القرآن كثيراً من المشاكل الدنيوية وهي مشاكل خاصة بعلاقة الإنسان بالإنسان ، وبحياته الإجتماعية والسياسية ، وصلته بأسرته وزوجه وما ينشأ عن ذلك من طلاق وميراث . ويشعر القرآن أيضاً تشريعاً يتصل بتوزيع الثروة ، فيحل مشكلة رأس المال والعمل ، تلك المشكلة العويصة التي برزت في العصر الحاضر بروزاً واضحاً ، ونشأت عنها نظرية الشيوعية والاشتراكية .

والفرض من القصص هو ضرب الأمثال للناس للعبية والقندوة كما قال تعالى : « ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل » ومخاطبة الخيال أوقع في النفس وأشد تأثيراً وبذلك جمع القرآن بين خطاب العقل والعاطفة والخيال ، فملك على الناس مناحي تفكيرهم ، وسلب أفئدتهم ، وكسب قلوبهم ، وأثر في نفوسهم .

والقسم الخاص بالأخلاق ينظم أفعال المرء مع نفسه ، وأفعال المرء مع غيره أي

المجتمع . فهي أخلاق شخصية واجتماعية ، على أن هناك بعض المذاهب تعتبر أن الأخلاق جميعاً اجتماعية ، وحتى الشخصية منها مرجعها إلى المجتمع .

وقد نصح الله الإنسان في أخلاقه الشخصية أن يقتصد في المال كما يقتصد في تناول الطعام ، لصلاح جسده وصلاح شأنه . « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » وقال : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » هذه فضيلة الوسط بين الإفراط والتفريط ، التي تتلاءم مع طبيعة الحياة الواقعية .

وفي أخلاق الأسرة كثير من الآيات . فالقرآن يحث على الزواج ، وينفر من الزنا وينظم العلاقة بين الزوج وزوجته على أساس خلقى من المودة والرحمة ، كما يأمر الأولاد بالإحسان إلى الوالدين ، والآباء أن ينظروا في خير أبنائهم .

وجامع الأخلاق الاجتماعية ، أو الأخلاق الفاضلة على وجه العموم يلتقى في التفسير الذى بسطه القابسي للاستقامة والصلاح بعد حديث الإسلام والإحسان . أما الاستقامة فهي : « القيام بما أمر الله به » ١١ - ١ .

أما الصلاح : « فما تقدم وصفه (أى الإيمان والإسلام والإحسان والاستقامة) من ولى بجميعه وفاء حسناً ، فقد استكمل صفة الصالحين » ١٣ - ب

وقد أمر الله المسلمين بالإيمان به ، وأداء الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصوم ، كما جاء في حديث الإيمان والإسلام .

ومن أراد أن يحيط بجميع أوامر الله فعليه أن يرجع إلى القرآن . وخلاصة هذه الأوامر تجتمع في أول سورة البقرة . ثانية سور القرآن بعد فاتحة الكتاب .

« آلم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » اعتقاد بالله والآخرة ، والوحى ، ثم الصلاة والزكاة .

وفي ذلك يقول « محمد على » ^(٥) : « إن مبادئ الإسلام الأساسية خمسة :

ثلاثة نظرية واثنان عمليان . فالنظرية الاعتقاد في الله والوحى والآخرة ، والعملية الصلاة والزكاة .

والإنفاق مما ملكت اليد هو الصدقة بأوسع معانيها ، أى العمل الصالح للناس جميعاً . ذلك أن الله لم يهب للإنسان المال وحده ، بل وهب له كذلك عافيته وملكانه .

وقد جمع الله بين الصلاة والزكاة في غير آية من الكتاب ، مما يدل على الصلاة الوثنية بينها . فالصلاة تهيئ الإنسان لخدمة الإنسانية .

والاعتقاد في الله هو النواة التي يدور حولها الإسلام : ومن هذه النواة يتصل الإنسان بالله عن طريق الصلاة . ولاخير في الصلاة إذا لم تؤد إلى فعل الخير ، كما قال تعالى في سورة الماعون : «قويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون» .

ورد في القرآن في مناسبات شتى الحث على الإنفاق ، والصدقة والزكاة ، كما يؤكد كثيراً من أفعال الخير كعنتي العييد ، وإطعام المسكين ، والعناية باليتيم . في سورة البلد : «فك ربة . أو إطعام في يوم ذى مسغبة . يتيماً ذا مقربة . أو مسكيناً ذا مقربة» .

والصدقة الظاهرة أو الخفية لها جزاؤها . في سورة البقرة : «إن تبدوا الصدقات فنعما هي ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير» .

ويرى جولد زهير : «أنه إذا أردنا الإنصاف ، فينبغي أن نؤمن بأن في مذهب الإسلام قوة صالحة توجه الإنسان نحو الخير ، وأن الحياة المتفقة مع التعاليم الإسلامية حياة أخلاقية لا غبار عليها ، ذلك أنها تتطلب الرحمة نحو جميع مخلوقات الله ، والوفاء بالعهود ، والمحبة والإخلاص وكف غرائز الأنانية إلى هذه الفضائل التي أخذها الإسلام من الديانات التي اعترف لأصحابها بالرمالة . المسلم الصالح هو ذلك الذي يحيا حياة يحقق فيها مطالب خلقية قاسية» (٦) .

في بعض آيات القرآن دعوة إلى الابتعاد عن الدنيا وإيثار الآخرة : « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » وفي سورة النازعات : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى » .

والحقيقة أن دائرة الإسلام لاتشمل الآخرة وحدها ، بل الدنيا أيضاً ، كما قال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولاتبلغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين » .

والروح الصحيح للإسلام لايتطلب الشدة ، ولايفرض القسوة على النفس . فالاستقامة في الدين كما يقول القابسي : « هو مداومة المقام فيه ، لاينكس عنه يمينا ولا شمالا ، ولايلتزم منه مالايطيقه » ثم ذكر أحاديث الرسول : « اكلفوا من الأعمال ما تنطبقون وفي حديث آخر : إن الدين يسر » .

والرأى عند محمد علي : « أن الإسلام يهتم أولاً بهذه الدنيا ، وأن الإنسان إذا عاش معيشة صالحة في هذه الدنيا ، فإنه يبلغ درجة رفيعة في الآخرة . ولهذا اشتمل القرآن على كثير من المسائل الدنيوية المتنوعة » (١٧) .

من هذا نرى أن القرآن أكبر مرجع للمسلمين ، وأول أصل من أصول الدين ؛ والجانب الخلق في القرآن عظيم .

لهذا كانت معرفة الدين عند القابسي لاتتم إلا بتعليم القرآن . ولعل القابسي لم يلزم الأمة ذكوراً وإنثاءً بالتعليم ، إلا ليتعلموا القرآن . وهو ينص على ذلك في صراحة إذ يقول : « إن حكم الولد في الدين حكم والده مادام طفلاً صغيراً : أفيدعُ ابنه الصغير لايعلمه الدين ، وتعليمه القرآن يؤكد له معرفة الدين » ٢٨ - ١

الضمير والأخلاق :

تبين لنا أن الأصل في الأخلاق الإسلامية على مذهب أهل السنة يرجع إلى سلطة خارجية قاهرة هي سلطة الدين . وأساس هذا الدين : القرآن الواجب تعليمه

وتعلمه والصلة بين الدين الإسلامى والأخلاق عظيمة تبلغ حد التوحيد بينها . فالدين وسيلة لتكوين الخلق ، والأخلاق مستمدة من الدين ولا غنى لصاحب الأخلاق عن عقيدة تسمو على مطالب هذه الحياة الدنيا ، إلى هذه العقيدة تتطلع النفوس وتذهب نحو الكمال .

ولعل الذى يجعل الإنسان يتطلع فى أفق هذا العالم إلى شىء بعيد يتلمسه ويرقبه ويستمد منه العون ، ويركن إليه فى ساعات اليأس والمتاعب والتنازلات هو امتياز الإنسان بالشعور .

والشعور النفسانى هو المرآة التى تنعكس عليها أعمال المرء ، فىرى فيها تقدير هذه الأعمال ، ويتسنى له أن يحكم عليها بالخير أو الشر .

هذا الشعور النفسانى هو الذى يعبرون عنه فى علم الأخلاق بالضمير ، ذلك الذى يقف من المرء موقف الرقيب ، يحثه على أداء الصالح ، وينهاه عن فعل الضار ، ويعاوده بعد أداء الأعمال ، فيؤديه مستكراً ما أساء ، ويجزبه براحة الضمير أحسن الجزاء .

ولا أخلاق بلا ضمير ، سواء اعتبرنا أصل الأخلاق سلطة خارجية دينية أو اجتماعية أو قانونية ، أو اعتبرنا أصل الأخلاق هو هذه السلطة النفسية الصادرة عن الترعات الذاتية والأفكار الباطنة .

فالشعور بالواجب الخلقى هو الذى يدفعنا إلى الأعمال الصالحة .

والضمير هو الحد الفاصل بين الرغبات المطلوبة ، والواجبات المفروضة فى الطباع الإنسانية يدركها صاحبها بالبديهة . وبعضهم يرجع بالضمير إلى الكسب والخبرة ، وبذلك ينشأ الضمير فينا بالتعليم والتطور الاجتماعى .

ومن الواضح أن القابسى لايقول بفطرة الضمير ، لأنه أحال الأعمال الخلقية إلى سلطة خارجية هى السلطة الدينية .

والضمير على رأيه مكتسب مستمد من الدين .

والقابسى من الموفقين الذين يؤلفون بين شتى المذاهب ، ويلتأمون بينها . فهو يثبت أن الله يعلم ما فى السرائر ، ويعرف خبايا النفوس ، وهو الذى يراقب العباد .

وفي الوقت نفسه يثبت أن الإنسان يعرف ما يعمل ، وهو الذي يراقب نفسه ، ثم يوفق بين مراقبة الله للأعمال وبين مراقبة صاحبه له .

والسبيل إلى ذلك هو إحلال الضمير الديني محل الضمير الخلقى ، بأن يستمد الضمير الخلقى وجوده من الدين ، وبذلك يتوحد الضميران .

ويعتمد القابسي في هذا التأليف على حديث الرسول ، سئل النبي : ما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه » فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وقد ضرب القابسي في تفسير هذا الحديث المثل بالسيد والعبد الذى يجهد نفسه فى حضرة سيده ليرضيه بحسن طاعته ، فإذا خلا العبد من معاينة سيده له ، فإنه قد يقصر . وقياس حال الإنسان مع الله على حال العبد مع سيده قياس مع الفارق العظيم ، لأن دائرة المشاهدة عند السيد محدودة ويخفى عنه الكثير ، وبذلك يتسنى للعبد أن يستغله ، اما العباد فإنما يستغلون أنفسهم إذا أرادوا الاستخفاء من الله . فانه يعلم كل كبيرة وصغيرة ، ولا يخفى عليه شيء .

وقد دار الجدل بين المسلمين فى علم الله ، أبعلم الكلليات والجزئيات أم الكلليات فقط ؟ قال ابن الجوزى : « وقد ذهب أكثر الفلاسفة إلى أن الله تعالى لا يعلم شيئاً وإنما يعلم نفسه .. وقد خالفهم ابن سينا فى هذا فقال : بل يعلم نفسه ، ويعلم الأشياء الكلية ولا يعلم الجزئيات . وتلقف هذا المذهب منهم المعتزلة » (٨) . والقابسي يمثل مذهب أهل السنة ، وهو أن الله يعلم الكلليات والجزئيات ، لهذا ساق آيات كثيرة من الكتاب لتأكيد هذه المسألة ، نذكر منها : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » .

« واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه » . « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » . « وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » . والأصل أن الضمير هو الذى يطلع على خافية الأنفس ، لأن الإنسان كساكن الدار لا يعلم ما يجرى فيها على وجه التحقيق إلا صاحبها .

(٨) نقد العلم والعلماء أو تليس إبليس لابن الجوزى : مطبعة السعادة ١٣٤٠ هـ ص ٥٠ - ٥١ .

والقاسى يسلم للضمير بهذه القوة وهذه الوظيفة : قوة الحفز على العمل الصالح والنهى عن ارتكاب السيئات ، ووظيفة الاطلاع والرقابة على الأعمال . ولكنه فى الوقت نفسه يؤمن بأن الله يعلم خائنه الأعين وما تحفى الصدور ، وهو الذى يعلم السر والجهر ، فهو رقيب على الرقيب من نفس الإنسان ، بل هو ضمير لضمير الإنسان والإنسانية .

ولا خير فى الضمير إن لم يكن حياً بقطاً يؤدى وظيفته على وجهها الصحيح من الرقابة الصادقة والاطلاع الدقيق . فكثيراً ما يتبدل الضمير مع الإلف والاعتقاد ، فيقع فى سبات لا يقوى معه على الشعور بالحسن والقيح . وإن شعر فإنه لا يقوى على شحذ الهمة إلى أداء الفضائل ، أو حفز النخوة إلى الابتعاد عن الرذائل .

لذلك قالوا عن صاحب الضمير الميت : إنه شخص بلا ضمير .
ولا أخلاق مع انعدام الضمير ، والشرط أن يكون الضمير بقطاً مع الأخلاق .
والرأى عند القاسى فى إحياء الضمير يكون بوسيلتين تنفرعان عن أصل واحد .
فالأصل هو الإيمان الخالص بالله القوى العليم الغفور ، والسييل الأول : « أن تعبد الله كأنك تراه ، وأن هذا يلتزمه العبد لله فى أحوال متقلبه ومثواه .. لأنه يجدد للمؤمن إيمانه كلما ذكره » ١٣ - ب .

والسييل الثانى هو الاعتصام بالله ، لأن الانزلاق الخلقى مرجعه اتباع الشهوات ، ولا عاصم للإنسان من نفسه الأماراة بالسوء إلا الله .. « فإن هم به الشيطان أن يلبس عليه شيئاً ، فاستغاث ربه ، واستعاذ به منه ، فكفاه عدوه ، وأعانه عليه .. وإنما المعصوم من عصمه الله جل وعز » ١٤ - ا .

الإيمان بالله ، والتزام عبادته ، والاعتصام به تعالى ، هى الوسائل المؤدية إلى حياة الضمير ، فتستقيم الأخلاق . وهذه أمور لا يعرفها الإنسان ويعمل بها بالبديهة والفطرة ، وإنما تكتسب بالتعلم .

فالمعلم مكلف بتلقين الصبيان الإيمان الصحيح ، والعبادات المختلفة ، والدعاء . وتقام بقطة الضمير ، ومراقبة المرء لنفسه ، ترفعه إلى مرتبة الصالحين ، تلك المرتبة التى لخصها القاسى فقال : « إن كمال ذلك كله فى قول الله عز وجل :

وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » ١٥ - ١ .

ذلك أن العبادة ليست عبثاً في الدين ، فالصلاة وهى الركن الركين في الإسلام عبادة الغرض منها معرفة الله ، وذكره في كل وقت ؛ ودوام الذكر هو السبيل إلى يقظة الضمير . لهذا السبب نص الفقهاء على وجوب انصراف المرء في الصلاة إلى ذكر الله مع عدم الاشتغال بأى أمر من أمور الدنيا . والصلاة المفروضة على المسلمين يؤدونها في خمسة أوقات متفرقة من كل يوم لدوام الذكر . وقد طُلب إلى المسلمين أن يأمرؤا أولادهم بتأديتها وهم بنو سبع ليسكنوا إليها ويألفوها ويتطبعوا بها ، حتى إذا تأصلت فيهم هذه العبادة ، انطبعت شخصيتهم بها ، فأصبح المحور الذى تدور حوله الشخصية ومنه تستمد حياتها وكيانها ، هو المحور الدينى .

وقد تزيد هذه الشخصية الدينية قوة مع قوة الشعور بوجود الله ومعرفته والإقرار برباقته ، بشرط أداء العبادة أداء صحيحاً .

وقد تضعف هذه الشخصية إذا كان صاحبها يردد العبادات ترديداً آلياً يتعدم معه الشعور بوجود الله ، فتتعدم الرقابة الدينية ، ولكنها لا تنمحي تماماً .

البواعث الخلقية :

هل الباعث على الأعمال الخلقية هو العقل أو الوجدان .

قبل أن نبحث حقيقة هذه البواعث الخلقية عند القابسى ، لابد أن نرى رأيه في حرية الإرادة . ذلك أن الباعث إن لم ينطلق عن اختيار فلا سبيل إلى الحكم الأخلاقى ولا موضع للمسئولية أو التكليف .

ومشكلة حرية الإرادة من المشاكل الدقيقة التى جرى البحث فيها فى شتى العصور ، ولم يصل المسلمون حتى الآن إلى حل سليم يتبعونه فيها ، مع ما لهذه المشكلة من آثار اجتماعية بعيدة الشأن فى حياة المسلمين .

والأصل فى هذه المشكلة يرجع إلى التوفيق بين حرية الإنسان والإرادة الإلهية ، ولابد من حل هذه المسألة الدقيقة الشائكة ليستقيم أمر الأخلاق . فقد يستلم

الناس إلى أمر الله استسلاماً أعمى فيركنون إلى التواكل ، ويلجأون إلى التكاسل .
ويذهب بعض الناس إلى حد ارتكاب المعاصي قائلين إن كل شيء بأمر الله ، أو
هذا ما كتبه الله على العباد .

قال ابن الجوزي : «وقد تشبث القاعدون عن التكسب بتعللات قبيحة ، منها
أنهم قالوا : لا بد أن يصل إلينا رزقنا ، وهذا في غاية القبح . فإن الإنسان لو ترك
الطاعة وقال : لا أقدر بطاعتي أن أغير ما قضى الله عليّ ، فإن كنت من أهل الجنة
فأنا إلى الجنة ، أو من أهل النار ، فأنا من أهل النار ، قلنا له : هذا يرد الأوامر
كلها . ومعلوم أننا مطالبون بالأمر لا بالقدر» (٩) .

«قالت المجبرة : لاقدرة للآدمي ، بل هو كالجباد مطلوب الاختيار
والفعل» (١٠) .

وينتقد أهل السنة الذين يشبّون الحرية والإرادة للإنسان ، بأن في خلق العباد
لأفعال أنفسهم سلباً للقدرة الإلهية . وفي ذلك يقول صاحب الإنصاف في تعليقه
على تفسير الكشاف : «ويعملون أنفسهم الحسنة شريكة لله في مخلوقاته ، فيزعمون
أنهم يخلقون لأنفسهم ما شاءوا من الأفعال على خلاف مشيئة ربهم ، محادة ومعاودة
لله في ملكه ، ثم يسترون بعد ذلك بتسمية أنفسهم : أهل العدل والتوحيد . والله
أعلم بمن اتى . والجبر خير من إشراك ، إن كان أهل السنة مجبرة فأنا أول المجبرين »
ولم يذكر القابسي حلاً صريحاً لهذه المشكلة لأن كتابه لم يتعرض لبحث المسائل
الكلامية . وأهل السنة على وجه العموم لا ينحوضون في بحث هذه المسائل الشائكة
التي تدعو في نظرهم إلى الانزلاق نحو الكفر ، وإنما يقبلون ما فيها من تعارض بإيمان
العقيدة ، لا يقيّن العقل ، كما كان يفعل السلف .

وقد أراد الأشاعرة أن يحلوا هذه المشكلة فما زادوها إلا تعقيداً ، ورأيهم في
الكسب دقيق ، ولذلك يضرب به المثل ، فيقال : هذا أدق من كسب الأشعري .
والرأي عندهم : « أن الأفعال مخلوقة لله مكسبة للعبد ، فجمعوا بين الأمرين

(٩) نقد العلم والعلماء لابن الجوزي ص ٣٠٥ .

(١٠) المرجع السابق ص ٨٩ .

وقالوا : إن الأفعال واقعة بقدره الله وكسب العبد . فالله تعالى يخلق الفعل والقدرة عليه بإجراء العادة ولهذا جاز إضافة الفعل إلى العبد وصح التكليف والمدح والذم والوعد . فإنا لو لم نقل بالكسب لزم أحد الأمرين إما الميل إلى الاعتزال ، وإما القول بالجبر ، وكلاهما باطل^(١١) .

أما أهل السنة فقد كفوا أنفسهم مؤونة هذا التحايل على التوفيق ، وقالوا إن الناس مطالبون بالأمر لا بالقدر .

فالقابسي يثبت القدرة الإلهية ، كما يثبت الإرادة الإنسانية ، ويضيف إلى الإنسان الاختيار ، وبذلك يكون مسئولاً عن أعماله ، محاسباً على أفعاله .

والباعث إلى تحريك الإرادة نحو جهة معينة باعث ديني .

فإن قلت : كيف يكون الباعث دينياً ، والبواعث تصدر من باطن الإنسان وهي التي تحركه .

قلنا : إن هذه المسألة ينطبق عليها ما ذكرنا في الضمير . فكما توحد الضميران الخلق والدين ، كذلك توحد البواعث الإنسانية والدينية ، ونقصد بالبواعث تلك الأوامر والنواهي التي وردت في القرآن ، وطلب إلى الناس فعلها . فالزواج باعث إنساني لاشك في ذلك ، لأنه يرجع إلى الغريزة الجنسية . وهو باعث ديني أيضاً لأن الله أمر بالزواج . والباعث إلى الامتناع عن الربا يكون باعثاً اجتماعياً ودينيّاً ، فهو اجتماعي لما فيه من أضرار تحمل بالمجتمع ، وهو ديني لأن الله نهى عنه .

والقابسي يرى أن البواعث يجب أن تكون دينية ، أي أن يتبع المرء ما جاء عن الله والرسول .

فإذا كان الأمر كذلك ، فالتعليم واجب لأنه يبصر المسلمين بأسباب الدوافع المحركة للإرادة على اختيار الأفعال . ولا بد أن ينتهي الأمر بالمرء إذا استغرق في الحياة الدينية ، أن يتصور منازعة صادرة عن الدين ، وأن يوزع أعماله بين الحلال والحرام ويفرق بينها .

فإذا بدأ الصبي الصغير في حفظ القرآن ومعرفة تعاليم الدين ، اختلطت هذه

التعاليم بشخصيته كلها فما وبلغ مبلغ الرجولة ، فتتحد البواعث الدينية في نفسه مع الزمن مع البواعث الشخصية .

فرجع البواعث إلى الدين ، وإلى القرآن .

والقرآن كما ذكرنا يخاطب العقل والوجدان ، لأن الطبيعة الإنسانية فيها التفكير والتدبير ، وفيها المحبة والكراهية ، ويعمل الإنسان بدافع من الرأي والنظر كما يتحرك بقوة الخوف والغضب .

ومذاهب العقليين في الأخلاق - والفلسفة القديمة أغلبها على هذا المذهب - تهمل جانب الوجدان . وأصحاب هذه المذاهب يفتنون الحكمة والعقل على أهواء للنفس ، ويرون في العقل أساس اختيار الفضائل .

وسقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيون ، وديكارت وليبنيز وكانط ، وغيرهم كثيرون على هذا المذهب العقلي .

وعند المسيحيين أن الباعث الأساسي إلى أفعال الخير هو الشعور بالمحبة . ويميل أغلب المحدثين - على الأخص علماء النفس -- إلى اعتبار الوجدان أساس الإرادة ، ويعتبرون العاطفة أساس الاختيار الإرادي ، وليس العقل .

وقد مالت طائفة من المسلمين وهم المعتزلة إلى ناحية العقليين ، ومالت طائفة أخرى إلى جانب الوجدانيين وهم المتصوفة . قال الجنيد : « المحبة ميل القلوب . معناه أن يميل قلبه إلى الله ، وإلى ما لله في غير تكلف » (١٢) .

وبعض المفسرين يفسرون الآية الآتية من سورة الإنسان : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً » ، أى محبة الله .

ولكن أهل السنة يأخذون بالجانبين جميعاً ، بالبواعث العقلية والوجدانية . مثل ذلك ما جاء عن تعليم اليتيم الذي ليس له مال ، فإن المعلم قد يعلمه احتساباً لله عز وجل ، فهذا باعث وجداني يرجع إلى العاطفة الدينية .

وجاء في تعليم الأنثى أنها : « تعلم ما يرجي لها صلاحه ، ويؤمن عليها من فتنه » فالباعث إلى تعليمها عقل ، لأن القابسي ينظر في مصلحتها ، ولو أنه يقصد

بالمصلحة ، المصلحة الدينية بطبيعة الحال .

ولانريد استقصاء جميع الأمثلة التعليمية الواردة في كتاب القابسي ، فكلها على هذا النمط من الجمع في البواعث بين العقل والوجدان .

الغاية الخلقية :

يختلف المفكرون اختلافاً كبيراً في تحديد الغاية من الأفعال الخلقية . وعندنا أن مرجع الخلاف هو إلى تباين الطبائع البشرية في المزاج والتفكير والإدراك والسلوك والشخصية .

جعل القورينائيون في الفلسفة القديمة اللذة الحسية غاية الأعمال الخلقية . وأنصار هذا المذهب قليلون ، لأن الأخذ باللذات الحسية يؤدي إلى آلام كثيرة ، كما يتعارض مع تقدم الإنسانية ، إلى جانب وجود لذات أشرف من اللذات الحسية . ومذهب السعادة أدنى إلى القبول ، وسقراط وأفلاطون وأرسطو على هذا المذهب . وفي السعادة راحة النفس والضمير ، ومرار الفرد وغبطة المجتمع . وإذا كانت السعادة أشرف من اللذة الحسية لأنها فضيلة الحكمة واختيار الوسط العدل بين الإفراط والتفريط ، ففي الإمكان التوفيق بين الارتياح الذي يشعر به الفرد وبين السعادة العامة . ويصعب التوفيق بين اللذة الشخصية وبين اللذة العامة التي يحس بها الناس جميعاً ، لأن تحقيق اللذة عند الغير يكون على حساب الفرد ، والاشتراك في إسعاد الآخرين لا يتنافى مع سعادة المجتمع .

وهناك مذاهب أخرى تشدد غايات خارجية موضوعية ، منها الكمال ؛ فالذي يفعل الخير إنما يريد أن يصل إلى الكمال .

والذين يقولون بالتطور يرون أن تاريخ الإنسانية صراع دائم نحو التقدم والرفق . وأن وجود هذه الغاية الأخلاقية ، هو الذي يجتذب الإنسان مع الخير إلى دوام التقدم .

ويعترضون على المذهبين السابقين بأن الصفات الخلقية هي نفسها الكمال أو التطور ، وهاتان الغايتان خاضعتان لغاية أخرى .

قالوا إن الطبيعة هي الغاية الخلقية . فالحياة الموافقة للطبيعة هي الحياة الحرة التي تجلب اللذة والسعادة ، وروسو في المذاهب الحديثة عنوان على هذه الفلسفة الطبيعية .

وهناك مذهب المنفعة الذي راج في الفلسفة الإنجليزية رواجاً كبيراً ، والمنفعة العامة إذا كانت رائد الأعمال الخلقية ، والغاية منها ، حققت الخير الأكبر عدد من الناس .

وقد تجنب بعض الفلاسفة الاعتراضات على المذاهب السابقة فقالوا إن الخير واجب لذاته ، يفعله المرء لأنه واجب . فالواجب الخلقى هو الغاية ، لا الكمال أو التطور أو الطبيعة أو المنفعة . وكانظ من أنصار مذهب الواجب في الأخلاق . ومذهب أهل السنة لا يرى رأى هؤلاء جميعاً ، لأنه خرج بالغايات الخلقية من ميدان الدنيا إلى ميدان الآخرة .

وبذلك يلتقي الناس جميعاً في غاية واحدة ، تنسج لهم جميعاً ، ولا يقع عليها خلاف ، هي التمتع بنعم الجنة في الآخرة . وقد وصف الله الجنة في أكثر من آية من القرآن ، ليكون الناس على بصير بما يلقون من جزاء .

« وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . في جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة » سورة الغاشية .
 إن للمتقين مفازاً . حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأما دهاقا لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حساباً » سورة النبأ .
 « إن للمتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون ، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون إنا كذلك نجزي المحسنين » سورة المرسلات .

من هذا الوصف للجنة يتبين لنا أن الله وعد المتقين في الدار الآخرة متاعاً من اللذة الحسية والسعادة ، فجمع بينها . وإذا كانت الجنة غاية خارجية ، ففيها تحقيق للغايات النفسية .

وفي الوقت نفسه وعد الله المفسدين الذين يؤثرون أنفسهم بنار الجحيم ، وفي

ذلك يقول : « إلا أصحاب اليمين . في جنات يتساءلون عن المجرمين . ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين » سورة المدثر .
والمنفعة من الغايات الأخلاقية الدنيوية ، التي تخضع لغاية أسمى هي الفور بالدار الآخرة « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون » سورة البقرة .

والسلم مطالب بالمعيشة وفق الطبيعة ، والتمتع بالطعام والشراب والزواج . كل ما في الأمر أن تكون هذه المعيشة الطبيعية ملائمة لمطالب الفرد ومطالب المجتمع . لإسراف فيها ، كما تحقق صلاحه وصلاح المجتمع وخيره .
وهناك مصالح رفعها الله إلى مرتبة الواجبات ، وفرضها على الناس ، كالصلاة والزكاة فالذى يؤدي الزكاة إنما يؤديها لأنها واجب ديني ، وهي في الوقت نفسه واجب خلقي . وبذلك توحد الواجبات الدينية والخلقية ، كما رأينا في التوحيد بين الضمير الديني والخلقي .

والواجب الخلقي في الإسلام يختلف عن الواجب عند كانط ، لأن الواجبات الإسلامية ليست غايات في أنفسها ، تطلب لذاتها ، ولكن من ورائها الجنة تنتظر من أحسن أدائها أما الواجب الكانطي فهو غاية لذاته .
وبذلك تجتمع الغايات المختلفة التي نظريتها المفكرون تحت راية واحدة ، وغاية أسمى وأعلى هي الغاية الدينية . ولا يمنع السعي إلى الآخرة من التعلق بأهداب الدنيا ، إذ لا تعارض بينها .

والقاسي ينشد من الأخلاق الغاية الدينية ، والسعادة في الدار الآخرة . وهو في الوقت نفسه لا يرى بأساً في طلب غايات دنيوية ، لأن الدين أقرها .
من الغايات الدنيوية التي يحققها الوالد من تعليم ابنه ، أن يكون به سعيداً ، أو كما يقول القاسي : « فمن رغب إلى ربه أن يجعل له من ذريته قرة عين ، لم يخل على ولده بما ينفق عليه في تعليمه القرآن » ٢٨ - ١ .

أما الغاية الأصلية فهي رضا الله : « فعمل الوالد إذا أنفق ماله عليه في تعليمه القرآن ، أن يكون من السابقين بالخيرات بإذن الله » ٢٥ - ١ .

والذى يعلم ولده فيحسن تعليمه ، ويؤدبه فيحسن تأديبه ، فقد عمل فى ولده عملاً حسناً ، يرجى له من تضعيف الأجر فيه . كما قال الله : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » ٢٥ - ب .

وصفة الصالحين عند القابسى هى حسن العبادة ، وأداء الفرائض واجتناب المحارم : كما قال تعالى : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » ١٣ - ا .

ويتعلق بالغاية مذهب آخر ، هو القول بأن الخير هل يلحق الفرد أو الجماعة . والإسلام على مذهب الجمعيين ، لأنه يشد خير المجتمع ، بل الإنسانية كافة ، وقد رأينا فى سورة المدثر كيف دخل المجرم النار لأنه لا يطعم المسكين ويؤثر القابسى خير الجماعة على خير الفرد ، ويحصى باستمرار على المصلحة العامة .

مثال ذلك ما جاء عن المعلم الذى يعلم الصبى الفقير احتساباً : « فإذا آثره على نفسه استأهل - إن شاء الله - حظاً وافراً من أجور المؤثرين على أنفسهم » .

شخصية الصبيان الخلقية :

تصل أعمال المرء بعد زمن إلى درجة من الثبات والآلية ، فتكون هذه الأعمال عنواناً عليه ، وتنسب إلى شخصه ، ويعبر عنها بالشخصية . وجزء من هذه الشخصية يكون خلقياً ، كالأمانة والصدق إذا عرفت عن شخص معين .

ومرجع الصفات الخلقية فى تكوين الشخصية إلى المجتمع ، لأن الإنسان على أى الحالات كائن اجتماعى قبل كل شئ .

والمدسة جزء من المجتمع ، بل هى عنصر هام ، وعامل من أكبر العوامل فى التأثير الاجتماعى ، خصوصاً فى المراحل الأولى من تربية الصبيان . وأول تأثير يتلقاه الطفل فى حياته هو تأثير الأشخاص الذين يحيطونه ، وهم والده وأهله فى المنزل ؛ فإذا شب قليلاً واشتد ساعده ، فإنه يختلط بغيره من الناس فى ذلك المحيط الضيق الذى يعيش فيه قريباً من المنزل . ومنذ سن الخامسة أو السادسة أو السابعة ، يستقل

الطفل إلى بيئة جديدة هي الكتاب ، حيث يبقى فيه إلى أن يتم حفظ القرآن بأكمله ، أو يحفظ جزءاً منه ، إلى جانب تعلمه القراءة والكتابة ، وبعض النحو والفريية ، وشيئاً من الحساب ، وما إلى ذلك من الأمور التي كانوا يعتبرونها وسائل للإحاطة بالدين .

في هذه البيئة الجديدة يتصل الطفل بغيره من الصبيان ممن هم في مثل سنه ، أو ممن يكبرونه قليلاً ، ويتصل أيضاً بالمعلم الذي يقوم بتعليم الصبيان وتأديبهم ، وأكبر الظن أن الصبي في مثل هذه السن الصغيرة لا يزن الأمور ، ولا يقدر مرامي الأعمال ، وإنما يتصرف ويسلك تحت وحي من المحاكاة الفطرية في النفس . ومحاكاة الحركات والأعمال أسبق من محاكاة المعاني والآراء .

والشخصية الجديدة التي يتأثر بها ويحاكيها لأنها أعظم الشخصيات بالنسبة للصبي وبالنسبة لجميع الصبيان ، هي شخصية المعلم فهم لا يجدون أمامهم إلا هو ، يتعهدهم منذ الصباح الباكر سحابة النهار ، وهو الذي يعلمهم أو يلقيهم هذه المبادئ المختلفة ، وهو الذي يرشدهم إذا أخطأوا سواء السبيل . وهو الذي يؤمهم في الصلاة إذا حضروها ، وله عليهم سيطرة شديدة تسمح له أن يضرهم في بعض الأحيان ، فهو منهم بمنزلة القائد . والصبيان في هذه السن الصغيرة اللينة يكونون كالعجينة التي يسهل تشكيلها . لهذا نجد الصبيان يحاكون المعلم في كل شيء . ومن هنا تنطبع شخصية الصبيان بطابع المعلم إلى جانب انطباعها بشخصية زملائهم في الكتاب ، ويتأثر القرآن الذي يتعلمونه .

على أن تصرف المعلم لا يكون إلا في حدود هذه المعاني القرآنية وقد يشذ بعض المعلمين عن تعاليم القرآن الصحيحة ، ولكنهم قلة لا يعمل لها حساب .

فالمرجع في سلوك الصبي يكون لتأثير المعلم ، وتأثير الصبيان الذين يختلط بهم . وتأثير آباءه في المنزل ، والمرجع هؤلاء جميعاً هو القرآن في تلك البيئة الإسلامية . ومن صفات القرآن أنه كلام الله ، لا مبدل لكلماته . وهو صريح في كثير من المسائل الأساسية في سلوك الإنسان صراحة لا تحتمل التأويل .

أما الخلاف بين الفرق الإسلامية ، فهو خلاف في تأويل بعض النظريات

العميقة في الإسلام . ولا يستطيع الصبيان لقصر عقولهم أن يفهموا مدى هذا الخلاف ، أو ينزلوا إلى معتركه . على أن أهل السنة يأخذون الأمور على ظاهرها ، ولا يتعمقون في التأويل إلى الدرجة التي تبعدهم عن الروح البسيط الموجود في القرآن . لذلك كان أهل السنة قريبين من قلوب الغامة وأفهامهم ، وقريبين من قلوب الصبيان وعقولهم أيضاً .

فالسيرة الخلقية التي ينتهجها الصبي ، والشخصية التي يتركب منها في الفترة التي يقضيها في الكتاب ، ترجع في نهاية الأمر إلى شيء واحد هو القرآن ، بالتفسير الذي يقدمه المعلم على مذهب أهل السنة .

وفي القرآن إلى جانب النص على أخلاق عملية معينة ، أسس خلقية تعد عماداً للأخلاق الحسنة أو الفضيلة . والأخلاق في خلاصتها مجموعة من الفضائل ترمي إلى الخير . والفضيلة والرذيلة ، أو الخير والشر ، طرفان متناقضان لا يجتمعان ، لأن الفضيلة هي الكمال ، والرذيلة هي النقص . والإنسان يحس نقصه ، وهو حين يرتكب الرذائل المختلفة إنما يثبت على نفسه هذا النقص . ولكن الإنسان يحاول التخلص من النقص ، ويتطلع نحو الكمال . هذا التطلع هو الرق بنفسه . والحياة كلها ترمي إلى الرق والكمال ، وقد يصل الإنسان إلى شيء من هذا ، ولكنه لا يبلغ النهاية ولا يصل إلى الذروة ، لأن الكمال لله وحده ، ولذة الإنسان في هذا السعي ، وفي هذا الرق لتحقيق المثل العليا .

ولا يتيسر الوصول إلى الفضيلة إلا بأمرين : التعلم والقدوة . وسيرة الرسول هي قدوة المسلمين كما قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وقال : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » . لذلك كان تعليم سيرة الرسول ذات فائدة خلقية عظيمة ، لأنه يضرب الأمثال للصبيان في الأخلاق الفاضلة . وكذلك تاريخ العرب وهو المعروف بأيام العرب وأخبارها ، والذي نص عليه القابسي وغير القابسي من المربين مع المواد التي يتعلمها الصبيان ، إنما الغرض منه سوق العبر الفاضلة ، والعظات الخلقية التي يقتدى بها الصبيان .

التربية في الإسلام

وإذا كانت هذه السير بعيدة عن أنظار الصبيان ، لا يتم التأثير بها إلا بمقدار ، فالمعلم ينبغي أن يكون هو نفسه مثلاً حياً للسيرة الفاضلة ، ليكون عنراً على الفضيلة . لهذا أوجب القاسى أن تكون صفات المعلم حميدة ليتأثر بها الصبيان ، وتم بها الفائدة في التربية الخلقية .
وهذا جانب من الطريقة السقراطية في الأخلاق ، لأنه هو نفسه كان مثلاً حياً للفضيلة .

والأمر الثانى المفيد فى كسب الفضائل هو معرفتها أو العلم بها . فالإنسان يجب أن يخضع لما يعقل ، أو لما له سبب ، فهو لا يذهب مذهباً خلقياً إلا بعد الإيمان بأنه مشروع . والإنسان يكون واثقاً من نفسه إذا سار على هدى من المعقولات ، لادفاع من التزوات لذلك نجد المحرم يبرز جريمته ، ويقنع نفسه بأن ما يعمل مشرع .

لذلك كانت الأخلاق تحمل فى طياتها جرائم التعليم ، سواء أكان تعليمها أو العلم بها صادراً من الشخص إلى نفسه ، أو من شخص آخر إليه ، والبيئة التى تريد أن تنشر الفضيلة ، لابد لها من تعليمها وبيان العلة فيها . وقد أشار القاسى إلى هذا التعليم الواجب للفضيلة قبل الأمر بها ، وقبل إنزال العقاب على مخالفيها . قبل أن يلجأ المعلم إلى الضرب ، ينبغي أن ينبه الصبي مرة بعد مرة إلى خطئه . وقال فى موضوع آخر : « يأخذ عليهم ألا يؤذى بعضهم بعضاً » وحين تكلم عن التبائع الذى يحصل بين الصبيان أوجب على المعلم : « أن يشدد عليهم فى الأخذ ألا يعودوا إلى التبائع فيما بينهم ، ويعرفهم وجه الربا فيما صنعوا على ذلك ، يخبره بعينه ويقبحه عنده . . . »

فحين نرى القاسى يطلب العلم بالفضائل أولاً ، أو المعرفة بها ، على أن يكون هذا العلم مستمداً من القرآن والسنة بطبيعة الحال . والقرآن غنى بالفضائل وأسبابها ، زاجر بالتوجيهات الخلقية ، والدوافع إلى الخير .

وتلك هى الطريقة السقراطية فى جانبها الثانى ، وهو العلم بالفضيلة ، بل إن سقراط وحد بين العلم والفضيلة ، فجعل العلم شرطاً للفضيلة لالتحقق إلا به ،

وجعل الذى يعمل الفضيلة عالماً بها .

وسبيل الوصول إلى الفضيلة عند سقراط هو الاستقراء والنظر إلى النفس ، وفى ذلك يقول الحكمة الماثورة : « اعرف نفسك بنفسك » . وفى القرآن إشارة إلى ذلك حيث قال تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » كما حث الله العباد على وجوب النظر والاستدلال .

ولكن الصبي الصغير لا يستطيع أن ينعطف على نفسه ليستخرج منها هذه المعاني الخلقية بنفسه . لهذا اكتفى القابسى بما يفعله المعلم من توجيه نظره وتفهمه ما يجب عليه هذا التفهم مستمد من القرآن والسنة . وقد أشار القابسى إلى ذلك عندما أراد معالجة الولد العاقى لوالديه فقال : « فاقراً على ولده القرآن ، وفهمه ماعليه لوالده فى لين ورفق لعله يتذكر أو يخشى » .

بذلك يكون الدين نفسه هو المحور الذى يدور عليه التعليم ، والذى تدور حوله التربية الخلقية . والنظريات الحديثة فى التعليم والتربية تجعل الطفل نفسه هو المحور الذى يدور عليه التعليم . هذا الانقلاب فى وجهة النظر التعليمية لم يتم إلا فى عصر متأخر ، أما فى العصر الذى نتحدث عنه فكان الدين مستغرقاً حياة الناس العقلية والخلقية والاجتماعية . ولهذا السبب كان أول شيء يعرفه الطفل ويتعلمه هو القرآن ، فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان فى حياته ، كما قال تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » .

الفضائل والوژائل :

الفضائل حلية الإنسان ، وهى حسنة إذا عمل بها صاحبها ، أما العلم بها دون عمل فلا فرق بين إنسان يحملها ، أو كتاب يحملها .

وقيل إن الإنسان مجموعة من العادات . وأغلب أعمال الإنسان عادات وهى توفر الوقت والمجهود ، وتودى إلى الاتقان والسهولة ، وتجعل صاحبها يتفرغ لأعمال جديدة يفكر فيها فإذا كان الأمر كذلك فمن الخير للإنسان المبادرة بتكوين العادات الفاضلة حتى تتأصل منه ، وتنزل منزلة الطبع ، ولأن الإقلاع عن العادات المردولة

إذا تمكنت يكون شاقاً عسيراً.

لهذا كان من الواجب على القائمين بتربية النشء ، أن يزرعوا في أنفسهم الصفات الخلقية الحميدة منذ الصغر ، ليشبوا عليها ، ويألفوها مع الزمن . وقد فطن القابسي لهذه النتائج المترتبة على تكوين العادة فقال بصدد تعليم الصلاة : « وقد أمر المسلمون أن يعلموا أولادهم الصلاة والوضوء لها ، ويدربوهم عليها ، ويؤدبوهم بها ، ليسكنوا إليها ويألفوها ، فتخف عليهم إذا انتهوا إلى وجوبها عليهم » ٢٧ - ١ .

وهناك فضائل أوحى القابسي بتوجيه الصبيان إليها ، كما أن هناك رذائل نص عليها ، ونبه المعلم إلى وجوب الحذر منها ، وإبعادها عن طريق الصبيان . والنص على رذائل خاصة ، وذنوب بعينها ، يدل على ما كان يجرى في ذلك العصر ، وينبئ عن أسرار تلك البيئة الاجتماعية .

من هذه الصفات الخلقية التي ينبغي أن يتحلى بها الصبيان الطاعة . وليست الطاعة واجبة على الصبيان نحو المعلم فقط ، بل هي واجب المسلمين كافة لأوامر الله والرسول ، كما جاء في القرآن : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . وفي القرآن آيات كثيرة نجبت على الطاعة بل تأمر بها ، فقد أمر الله المرأة أن تطيع زوجها ، والابن أن يطيع أباه . وبذلك نجد الإسلام يضع الناس في درجات من السيطرة والخضوع ، والأمر والانقياد . وفي قمة هذه الدرجات الله تعالى الذي أمر العباد بعبادته وتسبيحه وحمده ، كما أمرهم بأنواع كثيرة من السلوك بينهم وبين أنفسهم ، وبينهم وبين غيرهم . ويلي طاعة الله طاعة الرسول وأولى الأمر ، كل ذلك بنص في الدين . والوالد هو الولي الشرعي لأبنائه ، لذلك وجبت طاعة الأبناء للأباء بأمر الدين . والمعلم يحل محل الوالد ، ومنزلته هي نفس منزلته ، وفي ذلك يقول القابسي : « فإنما هو لهم عوض من آباؤهم » وبذلك تجب طاعة الصبيان للمعلم .

هذه الطاعة إنما أوجبها الشرع على الناس لحكمة . ذلك أن خير المجتمع ومصلحته إنما تكون في الألفة بين الأفراد ، والتعاون بينهم . وتحقق مصلحة

الصبيان بما يمليه عليهم أولياء أمورهم ، الذين قد سمعت عقولهم ، واتسعت مداركهم وكثرت خبرتهم ، وعرفوا الشرع والدين والحياة حق المعرفة . فلا يتم تعليم الدين ، بل تعليم أى أمر من الأمور ، إلا بالتلقين الصادر من الكبار إلى الصغار ، ولا يتحقق هذا التلقين إلا بالطاعة .

المعلم وهو يلقن الصبي إنما يقدم إليه خلاصة ما بلغت إليه الحضارة فى أجيال متلاحقة . ولو تركت الطفل يحصل بمفرده حقائق الحياة وأسرار الوجود ، لوجب أن يطول عمره آلافاً من السنين ليبلغ ما وصلت إليه المدينة الحاضرة . وعلى الصبي حين يكبر أن يضيف إلى خبرة الأجيال الماضية خبرة جديدة . ومن الصفات الخلقية التى ينبغى أن يتعودها النظام . والنظام والطاعة صنوان ، فإذا كان خير المجتمع فى الطاعة ، فإنها تستوجب النظام ، حيث كانت الفوضى مفسدة للمجتمع ، ومضیعة للتعاون الضرورى للحياة الإنسانية ، ولا دولة مع الفوضى .

هذا النظام مطلوب من الصبيان فى حضورهم إلى الكتاب ، وفى انصرافهم عنه ، وفى استماعهم للدرس ، وفى أعمالهم المدرسية . والعبادات فى الإسلام تحمل فى طياتها إلى جانب الطاعة والنظام كثيراً من الصفات الخلقية الحميدة .

فالصلاة عماد الدين . وتأديتها فى أوقاتها يعلم النظام والدقة فى حفظ المواعيد ، حتى إذا شب الطفل على إقامة الصلاة مع المحافظة عليها تعود الإقبال على العمل فى الوقت المناسب ، والمبادرة إلى انتهاز الفرصة قبل ضياعها ، وابتعد عن التثاقل ، وامتنع عن التكاسل .

وفى الصوم من النتائج النفسية والخلقية شئ ما للصلاة . لأن التعود على الإفطار فى ساعة معينة هو النظام الدقيق ، الذى يطبع المسلمين بطابع الإحساس بالوقت ، وحسن الاستفادة منه .

ولا تصح الصلاة بغير وضوء ، لأنه شرط للصلاة ، والوضوء غسل وطهارة ونظافة والنظافة من الفضائل الشخصية العظيمة الأثر فى الصحة ، كما تنتقل فائدتها

إلى النفس فتطهرها . ذلك أن الشعور بالنظافة الظاهرة ، يبيئ الإنسان إلى النظر في المعاني بالأسلوب نفسه ، فيعف اللسان ويطهر الفكر .

فالطفل مطالب بطهارة الجسم ، كما هو مطالب بطهارة القلب والنفس . لذلك ينبغي أن يكون صادقاً ، عفيفاً ، أميناً ، حافظاً للعهد .

والمعلم مكلف بتعليم الصبيان الوضوء ، والصلاة مع تأديتها في أوقاتها ، وهو في هذا التعليم الديني لهذه العبادة ، إنما يلقيهم في الوقت نفسه الطاعة والنظام والنظافة والعفة والطهارة .

ومن الدواعي التي تبعث الصبي على الانصراف عن المعلم وطلب العلم اللعب . ومن طبيعة الأطفال اللعب ، ففي هذه السن الصغيرة تشتد حيويهم ، وتكثر حركتهم ، ويقبلون على اللعب بدافع من الفطرة . وقد نص القابسي على أن اللعب من الذنوب التي تستوجب العقاب . فاللعب عنده من الرذائل .

والمعلم معذور إذا حاول أن يزجر الصبيان عن اللعب ، لأنه يريد الهدوء وينشد النظام المؤدى إلى حسن سير الدرس والتحصيل ، ولم تكن الدراسات النفسية للأطفال قد بلغت في ذلك الزمان مبلغ ما وصلت إليه الآن .

لذلك كانوا يعتبرون الطفل رجلاً صغيراً يعامل معاملة الرجال ، أما التربية الحديثة فإنها تنظر إلى حياة الطفل نظرة تختلف عن الكبار . لهذا مايرت التربية الحديثة ميول الطفل وغرائزه ، فاستغلت اللعب في مصلحة التعليم . وبذلك وفقت بين طبيعة الطفل وحاجة المجتمع فقامت المدارس الخاصة بالأطفال على اللعب في الظاهر ، مع أن الغاية المقصودة هي تعليم الأطفال . وعندئذ تتحقق المصلحتان ، مصلحة الطفل في الترويح عن نفسه ، واستغراق الحيوية الفائضة في كيانه المتدفق نشاطاً في هذه السن الصغيرة ، كما تتحقق مصلحة المجتمع من تنقيف الصغار على الوجه المطلوب القائد إلى التقدم والرقى .

هذا الجهل بطبيعة الطفل ، واعتبار ميله إلى اللعب ، ونزوعه إلى الحركة ، من الرذائل التي ينبغي أن تحارب ، أدت إلى كراهية الصبيان للكتاب . ومن شأن الإنسان إذا أحب شيئاً أن يقبل عليه ، وإذا كره شيئاً أن ينصرف عنه ، ويتعد

منه . فليس غريباً أن نرى الصبيان في ذلك العصر يتحولون عن المكان الذي يكرهونه ، ولا يجدون فيه المجال الواسع للحركة واللعب ، وهو الكتاب ، لهذا السبب كان الصبيان يهربون من الكتاب بل يديمون الهرب منه . كما ينبتنا القابسي في صراحة : « فإن اكتسب الصبي جرماً من أذى ، ولعب ، وهروب من الكتاب ، وإدمان البطالة . . » مما يفصح عن عادة تأصلت في نفوس بعض الصبيان . وكان المعلمون في ذلك الزمان يعانون مشقة هذه الرذيلة ، ويحاولون علاجها ، ولكنهم لم يفتنوا إلى أصل العلة وهو منع الطفل عن اللعب .

إلى جانب هذه الرذائل وهى اللعب ، والهروب من الكتاب ، وإدمان البطالة نجد رذائل أخرى تشيع في الواقع في كل جو مدرسى أو في كل بيئة اجتماعية يشترك فيها عدد من الصبيان أو الشباب . وهم الذين لم تتأصل في نفوسهم بعد مشاعر احترام الغير ، وضبط النفس . وكبح الأهواء الجائعة والتزوات الطائشة . فالصلة بين الصبيان تؤدي إلى التنافس فيما بينهم ، ومحاولة ظهور بعضهم على بعض ، وسيطرة أحدهم على غيره .

والسيطرة والظهور من أقوى الطوائع المحركة للهيم ، الباعثة على العمل ، ولاتتهذب طريقة السيطرة ، ولا يسمو الإنسان بالميل إلى الظهور ، إلا بعد تعلم طويل ، وثقافة عريضة ؛ بل العامة ، وأهل الشعوب المتأخرة ، يظل فيهم الميل إلى الظهور والسيطرة على الصورة الأولية من البطش والقوة والاعتداء البدني ، والغلبة الجسمية لا العقلية . فليس غريباً أن تبدو على الأطفال هذه النزعات الفطرية التي لم تهذبها الحضارة وتحولها الثقافة نحو الخير والسمو . بل ينبغي أن تظهر لأنها عنوان الحيوية ودليل النشاط والقوة .

ومهمة المعلم أن ينظم مثل هذه النزعات ، وأن يمهدها الطريق السوي المؤدى إلى التقدم والرقى . لذلك كانت مهمة المعلم شاقة ، تحتاج إلى كثير من الحكمة والبصر الناقد في أخلاق الناس عموماً . وطوائع الأطفال بوجه خاص . وقد سجل القابسي فيما ذكر من طوائع الصبيان إيذاء بعضهم بعضاً . وشكايه بعضهم أذى بعض ، بل استغاضة الأذى في بعض الأحيان . وعندنا أن هذه الرذيلة التي عدّها

القابسي كذلك هي من فضائل الحياة ، بل لا ينبغي اعتبارها رذيلة أو فضيلة ، لأنها طبيعة الطفولة ومظهر الفتوة ، ودليل التوب . وكان الواجب أن نعالج هذه الطبيعة نحو الخير والنفع بتوجيه قوى الطفل في أمور تستغرق نشاطه . ويبدو فيها الميل إلى التفوق العلمى والغلبة العقلية . وهذه هي الطريقة السليمة ، وقد نصح بها القابسي وأجازها في بعض الحالات . كما نذكر عند الكلام على طرق التعليم .

وأشار القابسي أيضاً إلى نقيصة خلقية كثيراً ما كانت تقع بين الصبيان وهي التباعد فيما بينهم ، كأن يبيع بعضهم من بعض : « كسرة بزيب ، أو زيباً برمان ، أو تفاحاً بقاء » وهذه الظاهرة ملحوظة في تلاميذ المدارس من كل جيل وفي كل شعب ، فهي طبيعة الناس إذا اجتمعوا وقد نظر القابسي إلى هذه المسألة نظراً دينياً فحرمها لما فيها من ربا ، وطلب إلى المعلم أن ينههم عن هذا التباعد . والحقيقة أنه إلى جانب الربا المذكور في كتب الفقه ، فإن التباعد بين الصبيان صرفاً لهم عن طلب العلم ، وشغل لأذهانهم عن التحصيل ، فضلاً عن إشاعة الفوضى وسوء النظام ، وظهور الحقد والغضب والحسد والبغضاء ، مما يؤدي إلى إيذاء بعضهم بعضاً رغبة في الانتقام ، وشقاء للنفس مما أصابها من الغل والحسد .

ومن الرذائل الفاشية في كل مجتمع ، وخاصة بين الشباب ما ذكره القابسي في هذه العبارة : « وإنه ينبغي للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساد ، يناهز الاحتلام ، أو يكون له جرأة » وهو وتعبير وجيز العبارة ، لطيف الإشارة ، يدل على عفة في نفس المؤلف ، تحمله على الابتعاد عن الإطالة في مواطن الفحشاء والمنكر . وهذا الإيجاز لا يحل هذه المشكلة الخطيرة ، فهي المشكلة الجنسية التي اجتهد الناس أجيالاً في إخفائها ووضع الرقابة الاجتماعية والخلقية والدينية في سبيلها ، إلى أن تبين لعالم النفس « فرويد » أنها أساس السلوك عند الإنسان في كل ناحية من نواحي الحياة ، بل إنها أصل الشذوذ والأمراض العصبية والنفسية .

وترجع هذه المشكلة إلى أن الرغبة الجنسية إذا ظهرت في أكمل صورها عند الاحتلام فلا بد لهذه القوة الغريزية من الانسياق . ولكن الدين يقف عقبة في سبيل

تحقيقها ، وكذلك المجتمع فإذا استمع الشاب لوازع الدين ، وأوامر التقاليد ، تراجعت الغريزة في نفسه ، وانجbst هذه القوة ، مما يؤدي إلى انفجارها بعد زمن . والغالب أن دافع الغريزة يكون أقوى من رادع الدين ووازع الضمير ، فيحقق نداء الطبيعة ، ويلبى صوت الغريزة ويحمله تيار الفطرة الجارف إلى هذه الألوان من الفساد الجنسى .

والحل الطبيعي الذى يتفق مع أوامر الدين ونواهيه ، واصطلاح العرف والتقاليد الحسة هو الزواج ؛ وهو الحل الوحيد . وفى ذلك يقول القرآن : «وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله» .

ولكن زواج طفل حديث البلوغ لا ييسر لأسباب صحية واقتصادية واجتماعية . وعندئذ نظل المشكلة قائمة ، وكل علاج يوصف لها ليس إلا من قبيل اللطافات الوقتية ، وما يدرينا ما يجربى فى الخناء بين هؤلاء الصبيان ، أو بين الصبي ونفسه . ولم يكن للقابسى من حيلة إلا أنه نصح المعلم باتخاذ الحذر والاحتباس ، ليكون يقظاً لما عساه يحدث بينهم .

ولو أن القابسى أطال الكلام فى هذا الموضوع لحدثنا عن أثر الفضيلة التى اكتسبها الصبي بالتلقين والعادة فى صراع الرذيلة . فالطفل الذى يحفظ القرآن إنما يحفظ آيات الخير ، لأنه كتاب لا ريب فيه هدى للمتقين .

والطفل الذى يؤدى الصلاة ، إنما يذكر الله ويعبده ، ويتقرب إليه ، ويقف بين يديه ويستعين به على صراع الشر .